

الخميس 06-01-2011

1224- في شرف صحبة نجيب محفوظ



في شرف صحبة نجيب محفوظ

الحلقة السابعة والخمسون

الخميس ثانی أيام العید

1995/5/11

كان موعد الخرافيش (بالإضافة إلى أشياء أخرى) سببا في عودتي من الإسكندرية قاطعا إجازة العيد، أحمد مظهر مضرب عن النزول من السرير، (وليس فقط من البيت)، اعتذر في آخر لحظة، كلمته في الهاتف فأصر على الاعتذار، قلت له أمرّ عليك بالمنزل فقال إنه يستطيع قيادة السيارة ولا توجد مشكلة في ذلك، وإنما المشكلة في النزول من السرير، هؤلاء الفنانون بحق!!، هؤلاء الفنانون!!!!!!

ممتلئ أنا غيظا هذا اليوم من أخبار المعاهدة النووية التي وافقوا عليها بالإجماع دون تصويت، ومن الاستيلاء على أراضى القدس، أفهم أكثر فأكثر ما الذي يدفع بالشباب إلى القتل، لو عندي مدفع صاروخي أو قنبلة ذرية الآن لقتلتهم جميعا، من هؤلاء الـ "هم"؟، هم كل من يبصق في وجي استهانة واحتقارا: رابين وكلينتون ويلتسون (رغم تصريحاته العاجزة من موقع المتسول الذي يهدد بالصياح وسب الدين) وبيريز وناتانياهو وحسين، عبرت عن غيظي هذا للأستاذ وشاركني بطريقته الهادئة، وذكرت توفيق ونحن في فورت جراند بتعبير العجوز في فيلمه المخدوعون وهو يكرر "الموت أهون" "الموت أهون" وهم يجرون عليه عملية خصاء في الأغلب لإنقاذ حياته بعد شظية أصابت أعضاء رجولته، نعم الموت أهون، واقترحت

على الأستاذ أن نستسلم حتى يتضاعف الألم بشجاعة، فقال: "أكثر من هذا؟!!!" "نستسلم أكثر رمن هذا؟" قلت: نعم، إما أن نقتل أو نستسلم، لم أعد أستطيع أن أمسح من على وجهي بصاقهم صباح مساء، مع كل إذاعة أخبار، ومع كل صدور صحف، "الاستسلام موت، والموت أهون"، قال الأستاذ: ألا ترى معي إننا لا نستأهل إلا ما هو نحن؟ لم يكن يلومني أو يلومنا، كان ينيبه إلى ضرورة تحمل مسئوليتنا، مهما كانت الضغوط والمؤامرات والقهر والأكاذيب، قلت نعم، و سوف أذود عن كرامتي كرامتنا ولو بقيت وحدي تماما، لايد أن يفعلها كل واحد وحده طول الوقت، ومع ذلك فللغليظ ميرر، وله لغته وحيثياته، بل إنني (مازلت أحاطب الأستاذ وتوفيق) حين شعرت بالإهانة فالعجز، تذكرت ما يغضب توفيق، ذلك أن كل هذه السلسلة من المصائب ترجع أصلا إلى هذا النظام العسكري الذي بدأ بتحقيق أسطورة القومية من على الكراسي ومنابر الخطابة وليس من أرض الواقع والاقتصاد والتكافل، ثم استمر يسمى كل هزيمة نصرا من أول 1956 حتى هزيمة (1967)، ثم راح يهدر فرصة إعلان الهزيمة مما كان يمكن أن يدفعنا إلى الألم، فالصبر، فالبدء في بناء حقيقي نستحقه، وغالبا نقرر عليه، إن هزيمة شعب حتى هي نغير صحبانه بشكل أو بآخر، نحن ندفع الثمن على أقساط سرية، أنا لا أستطيع - مع ذلك - أن أقول، أو أدعي أنه "أنا مالي"، واقعنا الأمر يقول إن هذا النظام هو هو، وأن أسوأ ما أفرزه هو أن بديله ألعن منه، ويوافقني توفيق على الخطوط العريضة للجزء الأخير من ناتج غضبي، لكنه ينبهني إلى أنه حتى بدون هذه الانحراف العسكرية التي أعزو إليها ما صرنا إليه، فإن هؤلاء الذين توالوا على رأس هذا النظام العسكري الممتد من عبد الناصر إلى مبارك مرورا بالسادات ليسوا إلا تمثيلا حقيقيا لما نستأهله ونرضى به في هذه المرحلة، ويضيف توفيق إن كل شيء جاهز ومعد لتنظيم المنطقة بأسرها وفق مصالح إسرائيل، يتابعنا الأستاذ دون تعليق، لكنني أطمئن إلى هزة رأسه ونحن (توفيق وأنا) نتناوب الجلوس بجوار أذنه اليسرى أراقب هزات رأسه المختلفة الزاوية، فأوجه له الحديث مباشرة قائلا: إن ما يشغلني الآن ليس الاستعمار العسكري أو حتى الاستيطاني ولا حتى الإغارة الاقتصادية، بل إن ما يشغلني هو "السجن في المنهج"، ذلك لأنهم يصدرون لنا بكل إلحاح منهجا قاصرا لا يسمح لنا بالتفكير المستقل، مجرد التفكير، نحن سجناء طريقة معينة في فهم الأمور لا نستطيع أن نتحرك إلا باستعمال أجديتها، فتكون النتيجة أن تضرر قدرتنا على المعرفة الأصلية، منتظرين السماح بالتحرك في السنتمتر من المنهج المتاح، فنمارس حتى نقدس الحروف والطريقة ونجمد عندها طويلا حتى بعد أن يكونوا هم قد تخلوا عنها بعد أن ثبت فسادها، أو بعد انتهاء عمرها الافتراضي بمرور الزمن، وأضيف، وكأني أخطب ناسيا نفسي: إنني على يقين أن الجريمة الحقيقية ليست في استيلائهم على كذا مائة هكتار، وإنما على استيلائهم على كذا "مساحة وعي" وكذا حق معرفة، وطالما نحن نعتبر أن العلم هو ما يقبلون نشره، وأن الزهو العلمي هو في إثبات حضورنا

تلك المؤتمرات السياحية التي يمدعوننا بها ويكذبون علينا بريقها، ويعينون أكثرنا لمعاناً على صدرها كنوع من الجاملة أو الديكور، فالمصيبة أكثر من كل تصور"، وتصلني شفقة الاستاذ على مدى انفعالي، وربما هي التي حالت دون أن يعلق، مع أنني لحت مثل ذلك داخله، من واقع ما سبق أن ناقشته فيه عن العلم والحضارة والمدنية والتاريخ، فلا أنكشه أكثر، ولا أسأله، ولا هو يتبرع بالتعليق. ويستغرب توفيق أن ما يعانى منه في مؤتمرات السينما من حيث أغراضها وجوائزها وطبيعتها يسرى أيضاً على المؤتمرات العلمية، فأؤكد له أن المصيبة في المؤتمرات العلمية الطبية أخطر وأعمق، لأن المريض هو الضحية نتيجة لغسيل مخ الأطباء لخدمة النقود لا الصحة، وهنا يعقب الأستاذ أخيراً فيحكي كيف أن الدكتور حسين فوزى أراد أن يحجب جائزة عن كاتب جيد هو محمود البدوي، وأن الأستاذ نبهه أنه "لماذا يا حسين بك، إنه يستأهلها جداً فعلاً، فيرد الدكتور حسين فوزى قائلاً: قل لي كم مؤتمراً حضراً؟ فرددت عليه قائلاً (يكمل الأستاذ): هل حضور المؤتمرات سيزيد من قيمة عمله الحد هذا الذى ارتقى إلى ما يستأهل التقويم بغض النظر حتى عن من هو صاحبه وأين ذهب؟ ومن قابل؟

ويعود الحديث إلى الحوارات التي ينشرها سلماوى على لسان الأستاذ، وأسأله مرة أخرى: ألم يفكر في أن يطلعه عليها قبل نشرها، فيقول - للمرة الكذا - لا أريد أن أعقد المسائل، فأشير إلى أن انتقادات سلماوى تحتاج إلى مشاركة ولو من صديق أو مريد أو تلميذ آخر غير سلماوى وغيره هو إن كان مصراً أن يعزف عن ذلك، فيسألني عن سبب فتح هذا الموضوع ثانية، فأقول إنه يتعلق بما نشر اليوم الخميس 11 مايو 1995، وكنت قد أحضرت الصحيفة معي، فيسأل: وماذا نشر، فأخرج الصحيفة وأنا أضيف أنني أخشى سطحية التلقى، وخطورة التعميم، وأنا في هذه الظروف بالذات، ومع الاعتراف بما وصلنا إليه من كسل عقلي، وعجز عن النقد الموضوعي والانتقاء، أخشى أن يساء الفهم أكثر فأكثر، وأستأذنه أن اعيد عليه قراءة ما نشر اليوم، وأقرأ:

الأهرام 11 مايو 1995: حوارات نجيب محفوظ : المرأة في حياتي

سألت نجيب محفوظ عن المرأة في حياته وأدبه وما موقعها، فقال: في الأدب هذا ملك الناس، أما في حياتي، فالأمر يبدو على قدر من الخصوصية، لذلك لن أحدثك إلا في العموميات، أما تقلي في القاهرة من قمتها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى قمتها، فقد جعلني أعرف وأخبر النساء من جميع الأشكال والألوان: وأنا صغير عرفت العوالم، وكانت هناك صلات الملامى مثل صالة بدبعة وغيره حيث عرفنا الراقصات والمغنيات ومشينا في شارع النساء من أوله إلى آخره بجيره وشره

وتوقفت بعد إنهاء القراءة حيث كان الوقت قد حان للانتقال إلى منزل توفيق.....

حين وصلنا إلى بيت توفيق، استعاد اعتراضى، فذكرته له من جديد، فقال "لقد كنت أصغر إخوتى، وكانت أمى تصحبنى سبباً في الأفراح دون حرج، فكنت أطلع على أحوال النساء والراقصات، وأجد أن ما يبدو من النساء أمام الرجال، أو في المجتمع الأوسع غير ما يبدين إذا اختلن بأنفسهن في عرس أو مع عائلة أو حتى في جلسة أنس دون هذا أو ذاك، وقد خبرت أحوالهن من خلال هذه الفرص وأنا صغير"، قلت له إن الحديث في الأهرام لم يظهر هذا أصلاً، بل إن الإشارة إلى كازينو بديعة، وتعبيرات مثل "من أسفل إلى أعلى"، و"كل النساء"، و"طريق النساء بخيره وشره"، كل ذلك لا يشير من قريب أو بعيد إلى هذه الشقاوة الصبانية التي يحدثنا عنها الآن، وأنا ليس لي اعتراض على تاريخ أو خبرات، لكنني أنبه إلى ضرورة انتقاء ما ينشر على العامة وما لا ينشر، ليس هذا فقط، ولكنني أشير إلى التوقييت والطريقة: متى؟ وكيف؟ هذه هي القضية، هز رأسه وصمت بنفس الطيبة والسماح.

حضر جميل شفيق الليلة، وفرحنا فهو مُقْبَلٌ وظيف معاً، قال فور دخوله إنه تعمد الحضور قبل التهامنا كل الطعمية البيتي، وأيضاً وهى بعدُ ساخنة، الصيف هل، وهذا هو أول اجتماع للحرفافيش في شرفة بيت توفيق التي تطل على النيل، بجوارنا منزل أنيس منصور، ومنزل بطرس غالى، والمنظر على كوبرى عباس من أجل ما يمكن، واللييلة ليلة 12 عربي، والقمر قارب الاكتمال، والجو برغم أنه مايو، عكس ما ألفنا، شديد الإنعاش.

تحدث جميل شفيق عن معرضه الأخير الذى يبدو أنه كان أحد أسباب غيابه عنا، وكيف أنه نقلته من الأبيض والأسود إلى الألوان، وكيف باع في هذا المعرض لوحات بأثمان لم يكن يتصور أن الذوق المصرى سوف يتناسب مع هذه القدرة الشرائية لدرجة أن تباع اللوحات بهذه الأسعار، وقلت له إنه لو حتى كان من يقتنيها يفعل ذلك بنية التجارة، فإن هذا أيضاً علامة جيدة على نهضة محتملة. حضر بهجت عثمان، عاد من بيروت مؤخراً ويبدو أنه لن يسافر ثانية قريباً، قلت الحمد لله حرفوشين زيادة، ولو نصف اللييلة أحسن من ذى قبل، وتنوع الحديث عن شتورة، وتمثال باسل الأسد الذى سيقمونه فيه، وخضوع حتى الرجل العادى لجرعة القهر السورى، ونصاحة السوريين (عملاء تيمور لنك من قديم) وأن الصفقة مع إسرائيل تحاك في الظلام إلى آخر هذا الكلام الذى تتبعه الأستاذ بشغف مستطلع.

ذكر بهجت عثمان تعليقا على كتاب أصدره رؤوف مسعد (أو سعد، لا أذكر) اسمه "بيض النعام"، وتحدثوا عن علاقته بزوجة أحدهم، وكيف أن هذا الكتاب يحوى قصصا متفرقة أقرب إلى السيرة الذاتية كلها عن أجساد وعلاقات بلغ من تنوعها أن حكى عن علاقات بالمحرمات، وقلت للأستاذ إن هذه العلاقات أكثر تواترا بكثير في الطبقة الدينا عندنا ينشر، أو يتصوره أبناء الطبقة المتوسطة أصلاً، وعقب الأستاذ على مثل ذلك تعقيباً علمياً مهماً.

أثناء عودتنا إلى المنزل سألته إن كان بهجت عثمان في سن توفيق؟ فأجاب "تقريباً"، ثم أضاف: نعم حوالى اثنين وستين أو ثلاثة وستين، ثم أضاف أنه لا يعرف تحديداً لأن هؤلاء الفنانين ليسو موظفين يحالون إلى المعاش فيعرف سنهم، فأنبئه إلى أن توفيق سنه تسع وستين وأنه من مواليد 1926، فيتعجب ولا يصدق، فأؤكد له أنه هو الذى أخبرنى بذلك، فيتمتم ياخير!! نظل أصدقاء طول هذا العمر، ولا أعرف حقيقة عمره، رأيت كيف؟

وأتساءل وما الحاجة إلى ذلك أصلاً؟